محاضرة رقم: 5

جون ديوي (1859- 1952)

اتسم الملمح الفلسفي بالتنوع والتعدد في الرؤى وتغيير طريقة تناول المشكلات الفلسفية؛ هذا الذي استقطب اهتمام "جون ديوي" الانخراط في فضاء التحولات الكبرى التي يعيشها الفكر الفلسفي الغربي المعاصر، ومحاولة تكييف الطرح الاشكالي مع الارتباطات الواقعية والعملية أملاً في تجاوز الجوانب النظرية للفكر الفلسفي، هذا التوجه الذي سعت إليه الفلسفة البراغماتية يكشف عن طموحها نحو بناء منظومة فلسفية قادرة على تقديم حلول للمشكلات التي تطرح على المستوى العلمي والعملي، وتصبح لها قابلية كبيرة لاحتضان المحتوى المعرفي من حيث تجديد نتائجه، فما طبيعة هذا الطرح الذي قدمه "ديوي"؟

1-الأسس الفلسفية للبراغماتية:

تعتبر الفلسفة البراغماتية من الناحية التاريخية فلسفة لها جذور موصولة بالفلسفات العلمية التي سادت في القرنين السابع والثامن عشر، حيث أصبحت تتصدر المشهد الثقافي المعاصر، في قيامها بغزو البعد الميتافيزيقي ونقد الأركان التي قام عليها، إذ عملت على تغيير طريقة الإهتمام الفلسفي، فبدل العناية بتحليل الأشياء والمعرفة، اتجه اهتمامها إلى مسألة التركيز على الخبرة والنظر إلى المعرفة على أساس نتائجها العملية، " وقيمة الأفكار في المعرفة عند "ديوي" هي قدرتها على أداء مهمتها :أداة تقود العمل في الاتجاه الذي يفضي إلى تحقيق هدف البحث، هذا الهدف الذي يتصف بالتحديد والتعيين والموضوعية العلمية، بعيدا عن الفوائد والمصلحة الذاتية أوالعملية المباشرة لفرد أو حالة معينة "[1] ، وتصور الأهداف، هي التي تجعل للفكرة شأنا وقيمة.

على هذا الأساس رصدت الفلسفة البراغماتية بعدها الفكري في تبني المنحى الواقعي، والاعراض عن الفلسفات التي غاصت في الفضاءات النظرية والميتافيزيقية، وربطت الأصول الفكرية بالنتائج المترتبة عنها في الواقع، ويعد "بيرس" من الفلاسفة الأوائل الذين مهدوا الطريق لظهور هذه الفلسفة، وأصبح له أتباع في ما بعد ، أمثال وليام جيمس، شيلر، جون ديوي الذي يغلب على فلسفته الطابع الأداتي، وقد ذكرت كثير من الدراسات العربية والأجنبية ما تميزت به

[1] ديوي جون، البحث عن اليقين، ترجمة أحمد فؤاد الأهواني، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، 1960، 162.

فلسفة جون ديوي البراجماتية من خصائص إنسانية وعلمية أفردت لها مكانة متميزة في الفكر الفلسفي المعاصر بعامة والفلسفة البراجماتية بخاصة"[1].

ورغم اختلاف وجهات النظر بين هؤلاء الفلاسفة، فإننا نجدهم يجمعهم قاسم مشترك يتمثل في مبدأ العمل، هذا الذي جعل الفلسفة البراغماتية، فلسفة تؤمن بالعمل في المقام الأول، وكذا توجهها الصريح نحو الواقع الفعلي، وبالتالي كان حشدها الفلسفي موجه إلى العمل الذي يثمر في النهاية ويعطي النتائج الملموسة، لذلك هناك نقاط الاتفاق تجمع الفلاسفة البراغماتيين:

1-الفيلسوف البراغماتي فيلسوف يحمل قناعة فكرية موجهة إلى العمل وبالتالي يعرض عن التصورات المجردة والأفكار المسبقة والخاوية التي ليس لها أي علاقة بالواقع الخارجي، كما قام بثورة على الأنساق الفلسفية المغلقة وعدم قبول الحلول اللفظية للمشكلات الفلسفية.

2-يهتم الفيلسوف البراغماتي بماهو متعين وواقعي، فيقوم بدراسة الوقائع من خلال الأفعال الانسانية، فهو لايهدف إلى الكشف عن حقيقة ثابتة ويقينية، وإنما يرمي إلى دراسة الطريقة التي نستطيع من خلالها التمييز بين الأفكار الصادقة التي تتجسد حقيقتها في الواقع والأفكار الخاوية من كل مضمون واقعي ولا تقدم لنا شيئا ملموسا في الحياة اليومية.

3-تتميز الفلسفة البراغماتية بصفة أساسية، وهي الايمان بحرية التفكير والتعبير، لأن الفيلسوف البراغماتي يمارس الشك في كل الأفكار، وبالتالي يفتح المجال واسعاً أمام عمليات البحث والتعمق في مختلف الدراسات الموصلة بواقع الانسان.

وفي هذا السياق، مهدت البراغماتية الطريق للإحتكاك بالواقع الذي يحتاج إلى سند عملي والتحرر من الأفكار والقضايا النظرية التي لاتمت بصلة إلى الواقع، لأن النجاح في نهاية المطاف يتعلق بالحاضر والمستقبل، لذلك كان أفقها الفلسفي يتحرك في فضاء ترسيخ فلسفة مفتوحة، مشدودة إلى الواقع العملي.

لقد بدا رفضها للأفكار الدوغمائية مشروعاً، مما جعلها تعرض عن كل المعتقدات الثابتة المتحجرة، لهذا كان إيمانها كبيراً بفكرة التطور والتغير، وكذلك الاهتمام بالجزئيات بدل الكليات، ويأتي ذلك بفضل توسيع التجربة الانسانية، ومنا يتضح، " أن فلسفة ديوي البرجماتية في المعرفة، دعوة لتجاوز كل النقاشات الابستيمولوجية حول وسائل المعرفة وطبيعتها وإمكانها، والعمل على إستخدام طريقة العلوم التجريبية، التي أصبح فيها اكتساب المعرفةعملاً موجهاً بذكاء،

[1] محمد علي العريات، تقديمه لترجمة كتاب رالف لنتون وقاموس جون ديوي للتربية، مكتبة الأنجلو المصرية، 1964، ص 13.

فأصبحت المعرفة عملية بالمعنى الصحيح ولم تعد تاملية"[1]، هذا التوجه أعطى لفلسفة "ديوي" نفساً قوياً في الطرح الفعلي للقضايا الفلسفية .

2-المقاربة الفلسفية للبراغماتية:

تمثل البراغماتية منهج أو طريقة في البحث عن المفاهيم المستعملة من قبل العقل والعمل على إخضاعها لمحك الإختبار، فالبراغماتية اشتقت من الكلمة اليونانية (براغما)، وتعني العمل، وهي مذهب فلسفي معاصر يؤكد على النتائج التي يقدمها العمل الإنساني، كما تركز على التجربة الانسانية في علاقتها بالواقع، على خلاف الفلسفات المثالية التي تمجد الأفكار وتجعلها مصدرا لكل حقيقة.

لهذا يتحدد موقف البراغماتية على ضوء رفض وجود معرفة قبلية وأولية، وتهدف إلى استنباط نتائج صحيحة بغض النظر عن جانبها التطبيقي، مما فسح لها المجال كي تؤسس أفكارها على الدور الذي تلعبه التجربة الانسانية في الحياة اليومية،" والبراجماتية تنبذ وجود معرفة قبلية أولية تستنبط نتائج صحيحة بصرف النظر عن جانبها التطبيقي حيث نجدها تؤكد على دور التجربة العملية التي يتعامل معها الانسان في حياته اليومية"[2] .

لذا كان ظهور هذه الفلسفة مقترناً بالأجواء الفلسفية والعلمية والأدبية التي سادت المناخ الثقافي في الولايات المتحدة الأمريكية، مما دفعهم هذا التعلق والتشبث بالمناهج العلمية التي أصبحت تفيد الحياة الانسانية، وكذلك إعادة النظر إلى الفلسفة من زاوية علمية حيث يبعد عنها الطابع التأملي الذي لم يعد يفيد الفلسفة، وهذا التصور يغذي البعد التطوري للفلسفة حتى تغدو أكثر نجاعة، وتشتغل كبقية العلوم الأخرى في تقديم حلول للمشكلات التي يصادفها الإنسان في الحياة اليومية، حيث تمكن " علم النفس من كشف حقيقة السلوكات الانسانية واستطاع أن يدرسها دراسة علمية بعيدة عن كل تفسير ميتافيزيقي حيث توصل إلى إمكانية السيطرة عليها عن طريق قوانين علمية"[1] ، هذا الذي اعطى لها المكانة العلمية في وضع مقاربة واقعية للتفسير الحقيقي المتقدم.

3-البراغماتية عند جون ديوي:

يتحدد موقف جون ديوي في نظرته إلى الفلسفة بصفة عامة والبراغماتية بصفة خاصة على أساس أنها مرآة تعكس التحولات التي مست الثقافة الاجتماعية في عاداتها وتقاليدها ومختلف الأفكار والمشاريع والقيم السائدة في المجتمع، وبالتالي أضحت الفلسفة كمفهوم معبر عن العمل الانساني وتجسيد لأفكار نالت أثرها في

---

[1] ديوي جون، تجديد في الفلسفة،ترجمة أمين مرسي قنديل، مكتبة الأنجلو مصرية، 1960، ص 269.

[2] احمد فؤاد الأهواني، نوابغ الفكر الغربي، جون ديوي، دار المعارف، مصر1968ص 128.

[1] جون ديوي تجديد في الفلسفة، ترجمة أمين مرسي قنديل، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1957، ص 158.

الواقع، والفلسفة الحقة، هي التي تتناغم مع روح العصر، لهذا اعتقد أن الفلسفة الصحيحة، هي تلك التي تتحدث عن الروح السائدة في العصر وتعبر عن مختلف الأحداث الجارية فيه إنطلاقاً من اختبار الأعمال التي يقدمها الانسان في حياته اليومية"[1] ، هذا ما ينم عن صلة الفلسفة بجوهر الانشغالات الانسانية المختلفة.

والفيلسوف في نظر "ديوي" من يتبنى مواقف يظهر فيها الاهتمام بقضايا وانشغالات عصره، وبالتالي ينمو تفكيره ووعيه عندما ينصت إلى هموم المجتمع وأحواله من الناحية الاقتصادية والسياسية والثقافية، ومنه يصبح أفقه الفكري يتجه إلى تغيير ما هو قائم في المجتمع، ويروم خلالها السعي إلى تحقيق ما هو أفضل، مبدعاً في رسم صورة المجتمع الجديد، فتجد أفكاره ما يثبتها على أرض الواقع، وعلى هذا الأساس يعد الفيلسوف عند "ديوي" فناناً مرناً يؤمن بالتغير والتطور حيث نجده يثور على زمانه وأوضاعه وحياته قصد تهذيبها ووضعها في مكانها اللائق "[1]، هذا التصور يجسد النمط الفكري الحقيقي الذي ينبغي على الفيلسوف أن يبسلكه .

وفي هذا السياق الفلسفي، يسعى "ديوي" إلى تجاوز الأوضاع السائدة، التي نسجتها الأفكار التقليدية والتي كانت سببا في تثبيط العقول، لكن هذا لا يعني الثورة على القديم، وإنما تعويض القديم بما هو جديد حيث نجد "ديوي" لا ينظر إلى الثورة كما ينظر إليها الوجودي المتطرف أو الماركسي أو السريالي، وإنما تبقى الثورة عنده غير مطلقة؛ لأنها مرتبطة بماضي لا يجوز انكاره حيث نجد اللاحق يستلزم السابق "[2] ، وهذا ما يدل بوضوح على صفة التطور الذي تقتضيه الحياة الاجتماعية في مختلف مساراتها.

هذا التطور الفلسفي أفضى إلى الاعتراف، بأن إن براغماتية "ديوي" فلسفة شملت بمباحثها مجالات واسعة من مباحث الفلسفة في المنطق والمعرفة والأخلاق والفن والتربية والسياسة، وفق نظرة علمية استمدت من علوم الطبيعة والاحياء والنفس والاجتماع"[1]، هذا الذي جعلها فلسفة متميزة في طرها الفلسفي.

انطلاقاً من هذه التداعيات الفكرية والمعرفية التي ساقتها فلسفة "ديوي" في ثوبها العملي، توحي بشكل أو بأخر عن النضج الثقافي الذي بلغته أفكاره البراغماتية حين عبرت بجرأة عن سلامة الموقف الفلسفي الرصين الذي يحتك بالواقع العملي، ويجتاز بنجاح في تغيير ذهنية المجتمع عندما يفضي العمل الفلسفي إلى التحرر الفعلي من التقليد الفكري الذي سجن مشاغله في الثنائيات التي

---

[1] يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص 425.
[1] يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص 425.
[2] صلاح قنصوة، نظرية القيمة في الفكر المعاصر، دار الثقافة للتوزيع والنشر، 1960، ص 115.
[1] محمد فتحي الشنيطي، المعرفة، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة- مصر ، ط3، 1963، ص 215.

فصل فيها الفلاسفة بين الروح والجسد، والذهن والمادة، والذات والموضوع، بل أكد بصراحة على ضرورة التحام العقل بالجسد واندماج الذات بالموضوع في سلسلة متطورة ومتواصلة للعمل بكفاءة علمية، تجعل الانسان قادراً على المواجهة عندما يتغذى فكره بمعرفة عملية تمكنه من تقديم أداء جيد، فتجعل الفكر مهيأ للنهوض بالحياة وما يعتريها من صعوبات، يكون متمكناً من مقاومتها.